٦

من الإسكندرية إلى القاهرة

أولى زيجات ابن بطوطة

خرج ابن بطوطة من تونس فى ركب الحاج التونسى وقد أُقيم قاضياً للموكب، فلما وصلوا إلى صَفاقس خطب بنتاً لأحد أمناء تونس من أفراد القافلة، والأمين هنا يراد به ما نسمِّيه بنقيب أهل حرفة من الحرف فى بلد من البلاد ، وهذا يدل على أن ابن بطوطة لم يكن قد رقى بعد فى السلم الاجتماعى حتى يخطب ابنة أحد القضاة أو التجار ، فلما وصلوا طرابلس بنى بها وذلك فى أواخر المحرم سنة ٧٢٦هـ/ أواسط يناير ١٣٢٦م ، وتلك هى أولى زيجات ابن بطوطة .

لا صحة لما يقال عنه من أنه كان مزواجاً

والمشهور أن ابن بطوطة كان مزواجاً لا يزال يتزوج ويطلِّق على طول الطريق، ولكن ذلك غير صحيح ، فقد كان الرجل عادياً من هذه الناحية ، لا يصرُّ على الزواج قبل أن تغيب شمس أى يوم كما يقال ، ولقد ظل ابن بطوطة على هذه الحال البسيطة حتى دخل آسيا الصغرى ، فانصبَّت عليه الهبات وكثر المال فى يده وكثرت جواريه ، فبدأت حاله تتغير ، وبدأنا نحس أن صاحبنا الشاب الطيب المتواضع الطنجى بدأ يتحول إلى رجل مترف شديد الحرص على المال والمتاع .

ويشاء الحظ ألاَّ يوفَّق هذا الزواج الأول لابن بطوطة ، لا لخلاف وقع بينه وبين عروسه ، بل لشجار وقع بينه وبين أبيها ، فطُلِّقت المسكينة ، وكأنما أراد ابن بطوطة أن يغيظ صهره السابق ، فتزوج على الطريق أيضاً

بنتاً لأحد طلبة فاس ، قال : « وبنيت بها بقصر الزَّعافِية ، وأولمت وليمة حبست لها الركب يوماً، وأطعمتهم» (ص ١٥). وقصر الزعافية بعد مدينة سُرت بقليل فى الجمهورية الليبية .

الإسكندريــة

وفى الأول من جمادى الأولى ٧٢٦هـ/ ٥ أبريل ١٣٢٦م دخل ابن بطوطة مع الركب مدينة الإسكندرية ، وقبل أن نتحدث عن ابن بطوطة فى الإسكندرية نقول إن مصطلح « الطلبة » الذى مر ذكره كان يطلق على طلاب العلم وصغار الفقهاء الذين كانوا يتقاضون رواتب من الدولة الموحِّدية؛ لأنهم كانوا يقرءون ويحفظون كتب محمد بن تومرت مهدىّ الموحِّدين ، حتى بعد أن أُلغيت عقيدة إمامة المهدى أيام أبى العلاء إدريس المأمون ثامن خلفاء الموحِّدين (١٢٢٧ـ ١٢٣٢م) ظل طلبة الموحِّدين من رجال الدولة القائمين بدعوتها واستمرت رواتبهم .

رخـاء البلد فى ذلك الحين

بهرت الإسكندرية أنظار ابن بطوطة بروائها وجمالها ، وكان البلد إلى ذلك الحين محتفظاً بكل بهائه ورونقه وثرائه ؛ لأن التجارة بين آسيا وأوربا كانت على أشدها ، وكان الجنويون والبيشيون والبنادقة يرسلون المراكب إلى ميناء مصر الكبير، وهناك يشترى ما فيها من بضائع تجار المصريين، وينقلونها إلى السويس أو القلزم، وهناك يبيعون متاجرهم للتجار الوافدين من اليمن والهند ، ويشترون منهم بضائع الهند من توابل وأقمشة حرير وتحف لينقلوها إلى الإسكندرية ويبيعوها تجارَ الإفرنج ، وكانت الدولة المملوكية الأولى تجنى من وراء ذلك أرباحاً طائلة ، وكان ثغر الإسكندرية عامراً بالحركة والمال والناس، وكانت هناك فنادق تجار الإفرنج ووكلاء الجمهوريات التجارية الإيطالية ، وكانت الخزانة المملوكية عامرة بالمال عن ذلك الطريق .

أبـواب الإسكندريــة

يتحدث ابن بطوطة عن ميناء الإسكندرية وسورها وأبوابها الأربعة – باب سدرة وباب رشيد وباب البحر والباب الأخضر – وهى معروفة إلى اليوم ، وهو لا يجد ما يماثل مرسى الإسكندرية إلا مراسى كَولم وقاليقوط

فى الهند ، ومرسى الكفار بسرادق ببلاد الأتراك ومرسى الزيتون فى بلاد الصين ، وسنتحدث عن هذه الموانى كلها فيما يلى من الأحاديث .

منارة الإسكندرية

ويتحدث ابن بطوطة عن منارة الإسكندرية ويقول أنه رأى أحد جوانبها متهدماً، وبحسب ما أذكر: تلك هى أول مرة نقرأ فيها عن بداية تهدُّم تلك المنارة التى كانت تعد من عجائب الدنيا السبع . ثم يقول بعد قليل : « وقصدت المنار عند عودى إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة (١٣٤٩م) فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله أو الصعود إلى بابه ، وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع فى بناء منار مثله بإزائه فعاقه الموت عن إتمامه » .

عمود السوارى

أضخم عمامة رآها

ويتحدث عن عمود السوارى ، ثم يتحدث عن بعض علماء الإسكندرية، منهم قاضيها عماد الدين الكندى الذى كان يعتمُّ « بعمامة خرقت المعتاد للعمائم، لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها ، رأيته يوماً قاعداً فى صدر محرابه ، وقد كادت عمامته تملأ المحراب » !.

وعماد الدين هذا هو أول من يلقاه ابن بطوطة من الرجال الذين يتركب اسمهم من شىء مضاف إليه لفظ «الدين » مثل فخر الدين وركن الدين وبهاء الدين ، وفى هذا العصر كله ما كان من الممكن أن تجد رجلاً من أهل العلم لا يتسمَّى على هذا الأسلوب ، حتى ابن بطوطة نفسه تَسَمَّى بشمس الدين .

أول من لقى من الأولياء

وفى الإسكندرية يلقى ابن بطوطة أوائل أصحاب الكرامات الذين كان يؤمن بهم ويحرص على لقائهم والفوز ببركاتهم على طريقة أهل عصره وإيمانهم بهم ، منهم الشيخ أبو عبد الله الفاسى ، وهو - كما يقول ابن بطوطة - من كبار أولياء الله تعالى ، يذكر أنه كان يسمع رَدَّ السَّلام عليه إذا سَلَّمَ من صلاته (ص ١٩) ، والإمام الزاهد الورع « خليفة » صاحب المكاشفات ، ويذكر أنه دخل مرة على الشيخ خليفة فقال له : « أراك تحب

السياحة والجولان فى البلاد. فقلت له : نعم إنى أحب ذلك، ولم يكن حينئذٍ بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين ، فقال: لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكرياء بالسند وأخى برهان الدين بالصين ! فإذا بلغتَهم فَأَبْلِغْهُمْ مِنِّى السَّلام. فعجبت من قوله ، وأُلْقِىَ فى روعى التوجُّه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم» (ص ٢٠)[1].

ويذكر كذلك من الأولياء الشيخ ياقوت الحبشى تلميذ أبى العباس المرسى، وهذا بدوره تلميذ أبى الحسن الشاذلى ، وسنرى ابن بطوطة يزور قبر الشاذلى فى حُمَيْثَرا فى الطريق من قوص إلى عيذاب ، وبهذه المناسبة يورد ابن بطوطة نص «حزب البحر » أى : دعاء البحر الذى كان يقرؤه الشيخ الشاذلى إذا عبر البحر الأحمر من عيذاب إلى جدة ليسلِّمه الله من العطب ، وما زال الشاذلية يتلون حزب البحر هذا كل يوم .

حرص سلاطين المماليك على سلامة تجار الإفرنج

ويحكى وهو بالإسكندرية حكاية تدل على حرص والى الإسكندرية على سلامة تجار الإفرنج فقد وقعت مشاجرة بين تجار الإفرنج وأهل الإسكندرية، فتحيَّز الوالى للتجار وعاقب المتشاجرين معهم من أهل البلد، فثارت ثائرة الناس، وأرسل السلطان الناصر رسولاً من القاهرة فتحيَّز هو الآخر للإفرنج، واسمه طوغان ، ويصفه ابن بطوطة بأنه كان جباراً قاسى القلب يقال إنه كان يعبد الشمس ، فكان هذا الرجل أقسى من الوالى على أهل البلد ، فحبس كبارهم وأغرمهم الأموال وقتل ستة وثلاثين منهم ، وقطعَ كلَّ رجل قطعتين وصَلَبَهم صَفَّين ، وكان ذلك يوم جمعة . ولم نسمع بهذا الجزاء إلا من ابن بطوطة، ولكنه على أى حال يدل على حرص السلطان الناصر بن المنصور قلاوون على تأمين جالية تجار الإفرنج فى الإسكندرية فهم مصدر دخل عظيم للدولة !.

---

(١) أرقام الصفحات هنا تشير إلى طبعة بيروت سنة ١٩٦١م لرحلات ابن بطوطة ، وهى طبعة غير محققة ، ولكنها هى التى فى متناول الأيدى اليوم .

وقرب الإسكندرية سمع ابن بطوطة « بالشيخ العابد المنقطع المنفق من الكون أبى عبد الله المرشدى ، والمنفق من الكون هو الولىُّ الذى يرزقه الله من عنده رأساً - أى: من الكون - فلا يحتاج إلى سعى أو عطاء من أحد ، وكان منفرداً فى زاوية له فى منية بنى مرشد فى الطريق إلى دمنهور ، وهناك يقصده الوزراء والكبراء وعامة الناس ، فيشتهى كل منهم ما يريد من الطعام ، فيأتيه به مهما كان ؛ وبالطبع كان هذا كله من الكون » .

من الإسكندرية إلى القاهرة عن طريق دمياط

ووصل ابن بطوطة دمنهور ، ومنها إلى فوة ومن هناك قصد إلى زاوية الشيخ أبى عبد الله المرشدى ، فلقى منه إكراماً وبرًّا ، وقال له الشيخ : «اصعد إلى سطح الزاوية ونَمْ هناك .. فصعدت السطح فوجدت به حصيراً ونِطْعاً وآنية للوضوء وجَرَّةَ ماء وقدحاً للشرب فنمت هناك » .

ورأى ابن بطوطة فى نومه مناماً ، فلم يحدِّث الشيخ به وانتظر أن يكاشفه الشيخ. والمكاشفة هى أن يعلم الشيخ أنك رأيت المنام الفلانى دون أن تحكى له شيئاً عنه فيقصُّه عليك ويفسِّره لك ، وقد فعل الشيخ المرشدى ذلك فزاد إيمان ابن بطوطة به .

ومن دمنهور ذهب إلى أبيار ثم إلى المحلة الكبرى ثم إلى دمياط ، وهذا أمر مستغرب، فهل كان يقصد القاهرة أم يقصد الشام؟! وهو يثنى على دمياط ومدينة البرلس ويذكر شيخاً صالحاً من أهل دمياط يسمَّى الشيخ جمال الدين الساوى كان يبهر النساء بجماله ويحكى كيف كاد يقع فى حبائل إحداهن حتى نجَّاه الله ؟ ثم هبط إلى فارسكور ثم إلى أشمون الرمان ثم إلى سمنود ، ومنها إلى القاهرة ، وهو يسمِّيها مدينة مصر ، وكان على طول طريقه هذا يَلْقَى العُبَّاد والزُّهَّاد وأصحاب الكرامات ؛ لأن رحلة ابن بطوطة إلى الآن رحلة دينية ، أو كراماتية إذا صح هذا التعبير ؛ فقد كان يقصد من يسمع به من أولياء الله فى بلادهم ، ويوجِّه رحلته على هذا الأساس لا على أساس الجغرافية .

وهذه ناحية جديرة بالملاحظة عند دراسة رحلة ابن بطوطة ، فهذا الرجل يطوف بنواحى الأرض مدفوعاً بعوامل شتَّى تجعل خط رحلته يتجه اتجاهات لا يمكن تفسيرها بالمنطق ولا تفسير لها إلا بفهم طبيعة ابن بطوطة .

فهذا رجلٌ سَفَّارٌ بطبعه، يرحل للرحلة فى ذاتها ، ويُغرب للتنقل فى نواحى الأرض ، كل شىء جديد يشوقه ويجذبه إليه .

وهذا رجل مؤمن عميق الإيمان، يثق فى الأولياء ثقة بلا حدود ، إنه يلتمسهم ليسألهم البركات ، ويطرب أشد الطرب إذا هو جلس إلى وليٍّ واستمع إلى صوته الحافل بالبركات .

وهذا رجل مسلم مشوق لرؤية عالم الإسلام كله ، فهو يطوف بنواحى الأرض فى صبر واحتمال كأنه صحفيٌّ أرسلته صحيفته ؛ ليكتب استطلاعاً عن عالم الإسلام ، فهو يطوف بذلك العالم الإسلامى ؛ ليتفرج ويستمتع ، ومركز حركته كلها مكة أُمُّ القرى وقلب عالم الإسلام ، يطوف ويطوف ثم يعود إليها ؛ ليصيب زاداً روحيًّا جديداً يُعينه على مواصلة المسير .

* * *